

الطيب صالح

عرس الزين

الفصلان الأولان من « عرس الزين » ، وهي رواية قصيرة ستظهر مع رواية قصيرة اخرى للمؤلف في كتاب معا في العام المقبل .

تأثر امام المسجد ايضاً بالحوادث العجيبة التي شهدتها القرية ذلك العام . كان رجلاً ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام ، في رأي أهل البلد . كانوا في دخيلتهم يحتقرونه ، لأنه كان الوحيد بينهم الذي لا يعمل عملاً واضحاً - في زعمهم . لم يكن له حقل يزرعه ولا تجارة يهتم بها ، ولكنه كان يعيش من تعليم الصبيان ؛ له في كل بيت ضريبة مفروضة ، يدفعها الناس عن غير طيب خاطر . وكان يرتبط في اذهانهم بأمر يحلو لهم احياناً ان ينسوها : الموت ، والآخرة ، والصلاة . فعلق على شخصه في اذهانهم شيء قديم كتيب مثل نسيج العنكبوت . اذا ذكر اسمه خطر على بالهم تلقائياً موت عزيز لديهم ، او تذكروا صلاة الفجر في عز الشتاء ، وما يرتبط بذلك من وضوء بالماء البارد يشقق الرجلين ، وخروج من الفراش الدافئ الى لفتح الصقيع ، وسير في غبش الفجر الى المسجد . هذا اذا كان الواحد منهم يذهب بالفعل الى الصلاة . اما اذا كان مثل محجوب ، وعبد الحفيظ ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحمد ود الريس ، من النفر « العصاة » الذين لا يصلون ، فانه يحس كل صباح باحساس غامض يثير القلق ، من نوع الاحساس الذي يحسه الواحد منهم اذا نظر خلصة الى امرأة جاره . ويقول لك محجوب اذا سأله عن امام المسجد انه « راجل صعب . لا يأخذ ولا يدّي ... » معنى ذلك انه لم يكن يسايرهم او يخوض معهم في احاديثهم . لم يكن يعنيه ، كما يعنيه ، اوان زراعة القمح وسبل ربه وسماده وقطعه

او حصاده . لم يكن يهتم هل الذرة في حقل عبد الحفيظ نجح ام فسد ، وهل البطيخ في حقل ود الرئيس كبر ام صغر ؟ كم سعر اردب الفول في السوق ؟ هل هبط سعر البصل ؟ لماذا تأخر لقاح النخل ؟ كانت تلك امورا ينفّر منها بطبعه ويحتقرها بسبب جهله بها . ومن ناحية اخرى ، كان هو يهتم بأمور لا يأبه لها الا القليلون في البلد . كان يتتبع الاخبار من الاذاعة والصحف ، ويحب ان يناقش هل ستقوم الحرب ام لا ؟ هل الروس اقوى ام الامريكان ؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو ؟ وكان اهل البلد مشغولين بجزئيات الحياة ، لا تعنيهم عمومياتها . وهكذا نشأت الهوة بينه وبينهم . لكنهم ان لم يجبهوه ، فقد كانوا يعترفون بم حاجتهم اليه . يعترفون مثلاً بعلمه ، فقد قضى عشر سنوات في الازهر . يقول الواحد منهم : « الامام ما عنده شغلة » ، ثم يضيف : « لكن الحق لله ، لسانه فصيح وكلام » . كان يلهب ظهورهم في خطبه ، وكأنه ينتقم لنفسه منهم ، بكلام متدفق فصيح عن الحساب والعقاب ، والجنة والنار ، ومعصية الله والتوبة اليه ؛ كلام ينزل في خلوقهم كالسم . يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زائغ العينين ، يحس وهلة كأن سير الحياة قد توقف . ينظر الى حقله بما فيه من نخل وزرع وشجر ، فلا يحس بأي غبطة في نفسه . يحس انها جميعاً عرض زائل ، وان الحياة التي يحياها بما فيها من فرح وحزن ما هي الا جسر الى عالم آخر . ويقف برهة يسأل نفسه ماذا أعد لذلك العالم الآخر ؟ لكن جزئيات الحياة ما تلبث ان تشغل فكره ، وسريعا ، اسرع مما كان يتوقع ، تغيب صورة العالم الآخر البعيد ، وتأخذ الاشياء اوضاعها الطبيعية . وينظر الى حقله فيحس مرة اخرى بذلك الفرح القديم الذي يعطيه مبررات وجوده . ومع ذلك فأكثرهم يعودون اليه في كل مرة ، ليجربوا نفس الصراع الغامض . يعودون اليه لأن صوته قوي واضح وهو يخطب ، عذب رخيّم وهو يرتل القرآن ، مهيب خفيف حين يصلي على الاموات ، حازم علم ببواطن الامور وهو يقوم بعقود الزواج . وكانت في عينيه نظرة احتقار وترفع ، يحس الواحد منهم وقعها حين يفقد ثقته بنفسه . كان مثل الضريح الكبير وسط المقبرة .

وكانت البلد منقسمة الى معسكرات واضحة المعالم ازاء الامام (لم يكونوا ابدأ ينادونه باسمه ، فكانه في اذهانهم ليس شخصاً بل مؤسسة) . معسكر أغلبه من الرجال الكبار العقلاء ، يتزعمه حاج ابراهيم ابو نعمه ، يعامل الامام معاملة ودّ يشوبه تحفظ . هؤلاء كانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد ، ويبدو على وجوههم على الاقل انهم يفهمون ما

يقول . يدعونه الى الغذاء كل يوم جمعة بعد الصلاة ، كل واحد منهم يدعوه يوماً بالتناوب . كانوا يدفعون اليه بصدقة الفطر في عيد رمضان ، ويعطونه جلود الذبائح في عيد الاضحى . اذا تزوج احد أبنائهم او بناتهم ، اعطوه حقه نقداً ومعه رداء او ثوب . شدّ عن هذا الفريق رجل في السبعين اسمه ابراهيم ود طه ، لا يصلي ولا يصوم ولا يزكّي ولا يعترف بوجود الامام . والفريق الثاني ، واغلبه من الشبان دون العشرين ، يعادي امام المسجد عداء سافراً . بعضهم تلاميذ في المدارس ، وبعضهم سافر وعاد ، وبعضهم يحس على اي حال بفيض الحياة حاراً قوياً في دمه ، فلا يحفل برجل صناعته تذكير الناس بالموت . هذا كان فريق المغامرین - منهم من يشرب الخمر سراً ويلم خفية « بالواحشة » في طرف الصحراء - ، وفريق المتعلمين ، الذين قرأوا او سمعوا بالمادية الجدلية ، وفريق المتمردین ، وفريق الكسالى الذين يصعب عليهم الوضوء في الفجر في عز الشتاء . ومن عجب ان زعيم هذه الفئة كان ابراهيم ود طه ، الرجل الذي جاوز السبعين ، لكنه كان يقرض الشعر . والفريق الثالث وقد كان اكثر المعسكرات وزناً ، فريق محبوب وعبد الحفيظ والطاهر الرواسي وحمد ود الرئيس واحمد اسماعيل وسعيد . كانوا متقاربين الاعداء ، بين الخامسة والثلاثين والخامسة والاربعين ، الا احمد اسماعيل فقد كان في العشرين لكنه بحكم مسؤوليته وطريقة تفكيره كان واحداً منهم . هؤلاء كانوا الرجال اصحاب النفوذ الفعلي في البلد . كان لكل واحد منهم حقل يزرعه ، هو في الغالب اكبر من حقول بقية الناس ، وتجارة يخوض فيها . كان لكل واحد منهم زوجة واولاد . كانوا الرجال الذين تلقاهم في كل امر جليل يحل بالبلد . كل عرس هم القائمون عليه ، كل مأتم هم الذين يرتقبونه وينظمونه . يغسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله الى المقبرة . هم الذين يحفرون التربة ، ويحلبون الماء ، وينزلون الميت في قبره ، ويهيلون عليه التراب ، ثم تجدهم بعد ذلك في « الفراش » يستقبلون المعزين ، ويدبرون عليهم فناجين القهوة المرة . اذا فاض النيل او انهمر سيل ، فهم الذين يحفرون المجاري ، ويقيمون التروس ، ويطوفون على الحي ليلاً وفي ايديهم المصابيح ، يتفقدون احوال الناس ، ويحصرون التلف الذي احده الفيزان او البسيل . اذا قيل ان امرأة او بنتاً نظرت نظرة فاجرة الى احد ، فهم الذين يكلمونها واحياناً يضربونها ، لا يعينهم بنت من تكون . اذا علموا ان غريباً حام حول الحي حول المغيب ، فهم الذين يوقفونه عند حده . اذا جاء العمدة لجمع « العوائد » فهم الذين يتصدون له ، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول . اذا ألم بالبلد احد رسل

الحكومة (وهم لا يأتون الا لماماً) فهم الذين يستقبلونه ، ويضيفونه ، ويدجون له الشاة او الخروف ، وفي الصباح يناقشونه الحساب ، قبل ان يقابل احداً من اهل البلد . والآن وقد قامت في البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعي ، فهم المتعهدون ، وهم المشرفون ، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء . كان الامام لا يحبهم ، ولكنه كان يعلم انه سجين في قبضتهم ، اذ انهم هم الذين كانوا يدفعون له مرتبه آخر كل شهر ، يجمعونه من اهل الحي . كل موظف حكومة يحل بالبلد ، وكل من له حاجة يريد ان يقضيها، سرعان ما يكتشف هذا الفريق فلا تنجح له مهمة او يتم له عمل الا اذا تفاهم معهم . لكنهم كانوا ككل صاحب سلطان ونفوذ ، لا يظهرون نزعاتهم الشخصية (الا في مجالسهم الخاصة امام متجر سعيد) . الامام مثلاً... كانوا يعتبرونه شراً لا بد منه ، فيحبسون ألسنتهم عن ذمته ما استطاعوا ، ويقومون « بالواجب والمجاهلة » كما يقول محجوب . لم يكونوا يصلون ، ولكن واحداً منهم على الأقل كان يحضر الصلاة مرة في الشهر ، إما الظهر او العشاء في الغالب ، فالفجر لا طاقة لهم به - ويكون غرض الزيارة في الواقع شيئاً غير الاستماع لعظة الامام ، حينئذ يعطون الامام مرتبه ، ويتفقدون بناء المسجد اذا كان يحتاج الى اصلاح .

وكان الزين فريقاً قائماً بذاته . كان يقضي اعظم اوقاته مع شلة محجوب ، بل انه كان في الواقع احدى المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم . كانوا يحرصون على ابعاده عن المشاكل ، واذا وقع في ورطة اخرجوه منها . كانوا يعلمون عنه اكثر مما تعلم امه ، يشملونه بعنايتهم ، وترعاه عيونهم من بعيد . وكانوا يحبونه ويحبهم . لكن الزين في موضوع الامام كان معسكراً قائماً بذاته ، يعامله بفظاظة ، واذا قابله قادماً من بعيد ترك له الطريق . ولعل الامام كان الشخص الوحيد الذي يكرهه الزين . كان مجرد وجوده في مجلس يكرهني الى اثارته ، فيسب ويصرخ ويتعكر مزاجه . ويتحمل الامام في وقار هيجان الزين ، ويقول احياناً ان الناس أفسدوه بمعاملتهم له كأنه شخص شاذ، وان كون الزين ولي صالح حديث خرافة ، وانه لو ربي تربية حسنة لنشأ عادياً كبقية الناس . لكن من يدري ، لعله هو الآخر أحس بقلق في صدره حين حدجه الزين باحدى نظراته ، فكل احد يعلم ان الزين اثير عند « الحنين » ، والحنين ولي صالح وهو لا يصادق احداً الا اذا أحس فيه قبساً من نور .

الا ان الامور اختلطت اختلاطاً غير يسير في « عام الحنين » . فان « خيانة » سيف الدين ، أو « توبته » (حسب المعسكر الذي انت فيه) أضعف فريقاً وقوى فريقاً . كان سيف الدين بطل « الواحة » وفارسها وزعيمها . فلما تحول الى معسكر « الاتقياء » « العقلاء » سرى الرعب في قلوب اصدقائه القدامى . كان من ناحية وارثاً ، فكان هو الذي يدفع عن الشراب في اغلب الاحيان . وكان ستاراً مفيداً يخفون وراءه في مجونهم ، اذ كانت البلد مشغولة به عنهم . وكان بعضهم يرى فيه رمزاً حقيقياً لروح الانطلاق والتمرد . وفجأة انهدت الارض تحت ارجلهم . ثم ان سيف الدين استغل معرفته بخباياهم ، فأصبح أخطر خصم لهم . واشتد ساعد الامام بسيف الدين . كانت « الواحة » دائماً شغله الشاغل ، تقوم في نظره رمزاً للفساد والشر . ونادراً ما كانت تخلو خطبة من خطبه من ذكرها . والآن وقد عاد سيف الدين الى جادة الصواب ، فقد زادت خطب الامام قسوة وزادت حملته قوة . واصبح سيف الدين المثل الذي يضربه كل مرة على ان الخير ينتصر في النهاية . لم يحفل الامام بأن « الحنين » ، وهو يمثل الجانب الخفي في عالم الروحانيات (وهو جانب لا يعترف به الامام) ، كان هو السبب المباشر في توبة سيف الدين . معسكر « الوسط » جماعة محجوب لم تتأثر كثيراً ، فهم يعتبرون « الواحة » ، كالامام سواء بسواء ، شراً لا بد منه . ولم يكونوا يأبهون كثيراً الى ان بعض شبان البلد يسكرون ، ما دام ذلك لا يؤثر على سير الحياة الطبيعي . لا يتدخلون الا اذا سمعوا ان شاباً سكراناً تهجم على انثى او رجل من اهل الحي . حينئذ يلجأون الى اساليبهم الخاصة ، التي تختلف عن أساليب الامام . وفي تأييدهم لبقية الناس ، في محاولة تهديم « الواحة » ، لم يكونوا ينظرون الى عملهم كما ينظر له الامام ، محاولة لتغليب الخير على الشر . لا ، بل لأن زوال « الواحة » سيفنيهم عن متاعب عملية ، لا حاجة بهم لها .

المهم ان الامام فرح بسيف الدين فرحاً عظيماً . اصبح يذكره في خطبه . يتكلم وكأنه يتحدث اليه شخصياً . تراه خارجاً داخلأ معه . وقال احمد اسماعيل لمحجوب مرة وهو يرى سيف الدين والامام يمشيان معاً ذراعاً في ذراع : « وَدَّ الْبَدَوِي مِنْ الْخَدَمِ لِلْإِمَامِ » .

وكان للامام رأي في أمر زواج الزين ، من نعمه بنت الحاج ابراهيم .

دخل محجوب دكان سعيد ، ووضع قطعة نقد على الطاولة ، فأخذها سعيد في صمت وأنزل من الرف علبة سجائر بحاري ، ووضعها في يد محجوب ومعها الباقي ، قطع معدنية صغيرة . أشعل محجوب سيجارة ، شدّ منها نفسين أو ثلاثة ، ثم رفع وجهه الى السماء وتمنن فيها دون احساس ، كأنها قطعة ارض رملية لا تصلح للزراعة . وقال بفتور : « الثريا طلعت . وقت زراعة المَرِّيقُ (الذرة) » . وظل سعيد مشغولاً بتفريغ علبة من صناديق ووضعها على الرف . بعد ذلك تحرك محجوب ، وجلس قبالة الدكان . ليس على الكنبه ولكن على الرمل ، مكانهم المفضل ، حيث ضوء المصباح يسهم بطرف لسانه ، فاذا ماجوا في ضحكهم احياناً تراقص الضوء والظل على رؤوسهم ، فكأنهم غرقى في بحر يغطسون ويطفون . بعد ذلك جاء احمد اسماعيل يجرجر رجله كعادته ، واستلقى بظهره على الرمل قريباً من محجوب دون ان يقول شيئاً . ثم جاء عبد الحفيظ وحده ودريس ، وكانا يضحكان . لم يسألما على صديقيهما ، وهذان لم يسألأهما عن سر ضحكهما . ذلك شيء آخر في تلك الفئة ، كانوا يعلمون بطريقة ما ، يعلمون ما يدور في ذهن كل منهم دون سؤال . وقال محجوب بعد ان بصق على الارض : « انتو لِسْعُ في حكايات سعيد اليوم (الأبله) » ؟ كان احمد اسماعيل قد انقلب على بطنه فقال وكأنه يحدث الرمل : « لازم المَرَّةَ عاوزة تطلّقه » . وقال عبد الحفيظ في مرج ان زوجة سعيد اليوم جاءت في الحقل ، وقالت له وهي تبكي انها تريد ان تطلّق من سعيد . ولما سأله عن السبب قالت له ان سعيد كلّمها كلاماً قاسياً في الليلة الماضية وقال لها انها امرأة « جيفة » - هكذا - لأنها لا تتعطر ولا تزين بكبكية للنساء . ولما قارعتة الكلام ، صفعها على وجهها وقال لها : « امشي أخدي دروس من بنات الناظر » . وكان الطاهر الرواسي قد وصل اثناء ذلك وجلس في هدوء في المكان الذي لا يصله النور من بقعة الرمل . ضحك وقال : « الشقي يمكن قايّل الناظر بيعرّس له واحدة من بناتّه » . وقال عبد الحفيظ انه طيّب خاطر المرأة ، وردّها الى بيتها ، وقال لها انه سيجيئهم ليكمل سعيداً . وفعلأ غدا اليها وقت الظهيرة . لكنه تريت عند باب الدار ، فقد وجدّه مغلقاً وسمع داخله ضحكات سعيد وزوجته ، ضحكات هنيئة مشرحة ، وسمع سعيداً يقول لزوجته ، وكأنه يعض أذنّها : « ابكي يا اخي ابكي » . وضحكوا كلهم ، كل واحد منهم على طريقته . احمد اسماعيل يكرر بضحك يزجر بين بطنه وصدرة . ومحجوب يضحك في فمه ويحدث طقطقة بلسانه . وعبد الحفيظ يضحك كالطفل . وحده ودريس يضحك

يجسمه كله ، وخاصة رجليه . والظاهر الرواسي يمسك رأسه بجماح يديه حين يضحك . وكان سعيد في دكانه ، فضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صوت المنشار في الخشب . وقال محجوب : « الشقي كيفن قدر عليها في الحردا ؟ »

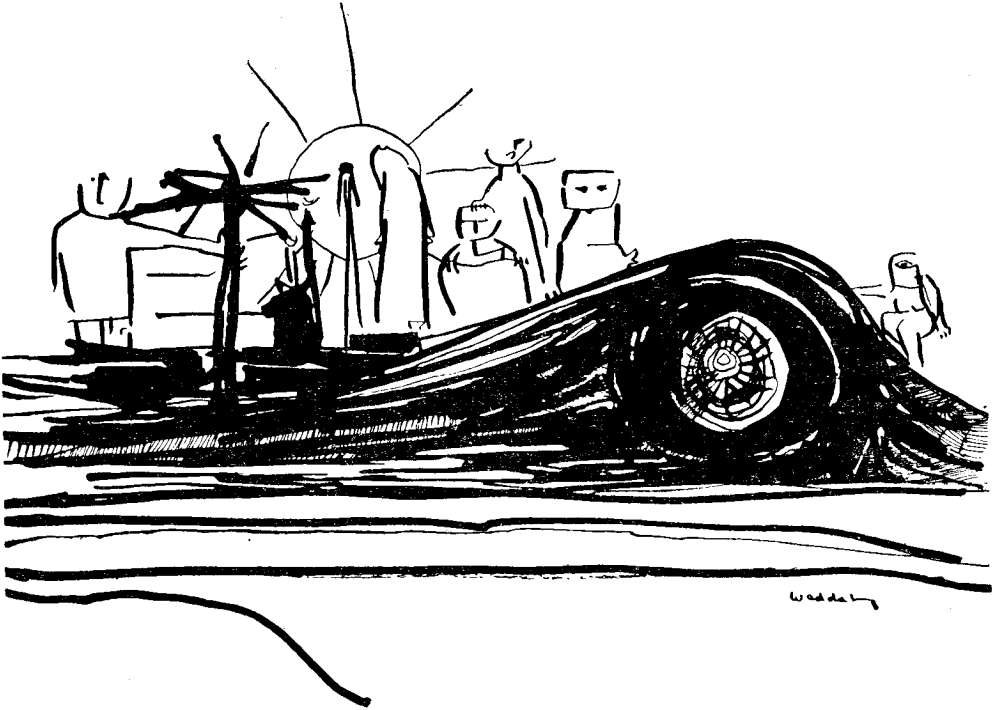
واستمر حديثهم هكذا . حديث متقطع تتخلله فترات صمت . لم يكن صمتهم ثغرات في الحديث ، بقدر ما كان امتداداً له . يقول احدهم جملة مبتورة : « ما عندّه فهم » . ويقول الآخر : « الفاضي يعمل قاضي » . ويضيف الآخر : « زمان قلنا لكم طلّعوه من اللّجنه قلتو لا » . ويقول الآخر : « باذن الله دي آخر سنه ليه » .

ولا يدري الغريب عنهم عن يتكلمون ، لكن ذلك شأنهم ، يتحدثون وكأنهم يفكرون جهاراً ، وكأن عقولهم تتحرك في تناسق ، وكأنهم بشكل او بآخر عقل كبير واحد . يمضي الحديث رتيباً مثل هذا ، ثم يذكر احدهم عرضاً جملة او حادثة تثير خيالهم جميعاً في وقت واحد . وفجأة تسري فيهم الحياة فكأنهم كومة قش اشعلت فيها النار . يستوي جالساً الذي كان راقداً على ظهره ، ويضم الآخر ذراعيه على ركبتيه ، ويقرب الذي كان جالساً بعيداً ، ويخرج سعيد من دكانه . يقتربون بعضهم من بعض ، حينئذ ، كأنهم يتحركون نحو تلك النقطة ، ذلك الشيء في الوسط الذي يسعون اليه جميعاً . يميل محجوب الى الامام ، وتنغرس يدا احمد اسماعيل في الرمل ، ويضغط ود الرواسي بيديه على رقبته . هذه هي اللحظة التي تلمحهم فيها ، بين النور والظلام ، وكأنهم غرقى في بحر . واحياناً يتحدثون في كلامهم ، يتشاجرون ، تخرج الكلمات من أفواههم كأنها قطع من الصخر ، تتقاطع جملهم ، يتحدثون في آن واحد ، ترتفع اصواتهم . في مثل هذه الحالات يظن الغريب عنهم أنهم غلاظ الطبع . لهذا تختلف الآراء عنهم ، حسب اللحظات التي يراهم فيها الناس . بعض اهل البلد يعتبرونهم صامتين قليلي الكلام ، لأنهم يصادفونهم في احدى تلك الحالات ، حين يقف حديثهم عند « آ » و « او » و « لا » و « نعم » . وبعض الناس يقولون عنهم انهم « ضحاكون » كالأطفال ، لأنه صادف ان وجدوهم في احدى حالات غرقهم . ويحلف موسى البصير انه زامل محجوب الى السوق - مسافة ساعتين بالحمار - فلم يقل له كلمة واحدة . كان الناس يبتعدون عن مجالسهم ، لأنهم حينئذ

يحسون احساس الغريب ، وكانوا هم يفضلون ألا يكون بينهم غريب . كانوا كأنهم توائم ، ولكن اذا هاشرتهم مدة ، تدرك الاختلافات التي تجعل كلا منهم فرداً قائماً بذاته . احمد اسماعيل ، بحكم سنه ، كان أميلهم الى المرح ، ولم يكن يبالي اذا انتشى بالخمير في المناسبات . كان احسنهم رقصاً في الاعراس . وعبد الحفيظ كان أكثرهم مجاملة للناس الذين لا يفكرون مثل تفكير « العصابة » كما كانوا يسمون انفسهم ويسميهم الناس . كان هو الذي ينبههم الى ان ابن فلان تزوج ، وفلاناً مات ابوه ، وفلاناً عاد من السفر (من سكان الاحياء البعيدة عن حيهم) فيذهبون جماعة في الغالب ، للتنهية او للتعزية . وكان احياناً يذهب للمسجد للصلاة ، دون علمهم . وكان الطاهر الرواسي أقربهم للغضب ، وأسرعهم الى امساك عصاه او سحب سكينه في اوقات « الزنقة » . وكان سعيد أحسنهم في حاججة الحكام ، يسمونه « القانوني » . وكان حمد ود الرئيس ذا اذن حساسة لأخبار الفضائح ، يجمعها من اطراف البلد ، من الاحياء البعيدة ، ويلقيها عليهم في اوقات معينة في مجالسهم . وكانوا يندبونه في الغالب لمعالجة مشاكل « النسوان » في البلد . وكان محبوب أعظمهم وأنضجهم . كان مثل الصخرة المدفونة تحت الرمل ، تصطدم بها اذا عمقت في حفرك . وكانت صلابته تظهر في الازمات الحقيقية ، حينئذ يصير « ريس المركب » يأمر وهم ينفذون . جاءهم مرة مفتش جديد للمركز ، اجتمعوا به مرة ومرتين . تحدثوا اليه ، وتناقشوا معه . ثم قرروا فيما بينهم انه غير صالح . وبعد شهر تأزمت الامور ، فقد قال المفتش لبعض الناس ان « عصابة محبوب » تسيطر على كل شيء في البلد . فهم اعضاء في لجنة المستشفى ، ولجان المدارس ، وهم وخدم لجنة المشروع الزراعي . ووصل اليهم ان المفتش قال : « ما فيش في البلد رجال غير الجماعة ديل ؟ » . لما تشاوروا في الامر بينهم ، كانوا أميل الى الرضوخ للامر الواقع ، وبعضهم عرض ان يستقيل من عضوية اللجان التي هو فيها . ولكن محبوب قال : « ما في انسان يتحرك من مكانه » . ثم لم يلبث المفتش غير شهر آخر حتى نقل . كيف تم ذلك ؟ لمحبوب أساليبه الخاصة ، في الحالات القصوى .

كانوا يضحكون ، حين سمعوا الزين يشتم بأعلى صوته : « الرجل الباطل . الحمار الدكّر » . ووصل عندهم ، فوقف برهة فوقهم ، ساقاه منفرجتان ، ويداه على خصره . كان نصفه الاعلى كله في الضوء ، ولا حظوا ان عيونه حمرة حمرة اكثر من احمرارها الطبيعي . قال الطاهر الرواس : « واقف فوقننا مالسك داير تشرّب دمتنا ؟ يا تقعد يا تغور » .

وقال احمد اسماعيل : « لازم الزين سكران الليلة » . وقال عبد الحفيظ : « اقعدْ خدْ لكْ نفَس » . وقال حمد ود الرئيس : « قالوا الليلة كنت في حوش العمده . شَن مَشيت تسوِّي ؟ البنت وعرّسوها ، ثاني شَن داير ؟ » وأمسك الزين السيجارة من عبد الحفيظ وجلس صامتاً وأخذ ينفخ فيها بغیظ . ضحك الطاهر الرواس وقال له : « مو كدى يا مرمّد . عامل نفسك فتنجّري ومتفكّهم ، السيجارة ماك عارف تشربها . جرّها لي ورا . أبي كدى ، زَي كأنك تمص فيها » . ونجح الزين في جذب الدخان الى فمه ، فنفت منه غمامة كبيرة ، وقفت ساكنة برهة ثم ذابت في خيوط دقيقة ، بعضها انحوا الضوء والآخر اختلط مع سواد الليل في الجانب المظلم . وجاء بدوي من عرب القوز يقصد الدكان فقام اليه سعيد . وسمعه يقول لسعيد : « خمسة ارطال سكر ونص رطل شاي » . وقال احمد اسماعيل : « العرب ديل كل قروشن مودرنها في السكر والشاي » . وهنا صاح الزين بسعيد : « خلي المرة تعمل شاي ثقيل باللبن ... يكون مضبوط » . فقال له سعيد : « حاضر يا زعيم . نعمل لك شاي مضبوط باللبن » . ثم نادى من شبّاك



يصل بين المتجر والدار خلفه : « اعملوا قوام شاي ثقيل باللبن للزعم » . وانتعش الزين ، فقال بمدح : « انا أرجل راجل في البلد دي ولا ؟ » فقال له الطاهر : « طبعاً » . « طيب ليه الحمار الذكر ، يروح لي عمي ويقول له الزين مش راجل بتاع عرس ؟ » وقال ود الرئيس : « الامام غاير منك . داير المره لي رقبتة » .

فقال الزين : « بيت عمي ولا ؟ يروح يشوف له بيت عم » . قال له محبوب بحزم : « العقد يوم الخميس الجاي . بعد دا ما فيش طرطشة ورقيص وكلام فاضي . سمعت ولا ؟ » سكت الزين .

وسأله الطاهر الرواسي : « منو القال لك ؟ » فقال الزين : « هي نفسها كلمتني » . كان محبوب ممدأ رجله على الرمل ، متكئاً على ذراعيه ، فلما سمع هذا تشنج جسمه كأن احداً قرصه ، واستوى جالساً : « هي بنفسها كلمتك ؟ » « أبي . جاتي الصباح بدري في بيتنا . وقالت لي قدام امي : يوم الخميس يعقدوا لك علي . انا وانت نبقي راجل ومره . نسكن سوا . ونعيش سوا » . وارتفع صوت محبوب من فرط حماسه ، وقال في اعجاب ليس له حد : « علي باليمين مره تملأ العين . طلاق بيت ما ليها اخت » . وجاء سعيد يحمل الشاي فقال له محبوب : « سمعت الكلام دا ؟ البيت مشت كلمته بنفسها » . فقال سعيد : « بيت عنيده راسها قوي . ربنا يستر » . صمت الباكون برهة ، ولكن محبوب ضرب فخذه براحة يده عدة مرات وقال وهو يتلفت يمينا وشمالاً ، بحماسة وانفعال : « يمين الزين ماش يعرّس له بتّا تمشيه فوق العجين ما يلخبطه » .

وشرب الزين الشاي ، في صخب كعادته ، يمص الشاي مصّاً له زئير . وفجأة وضع الكوب من يده ثم ضحك . وقال في سرور : « الحنين قال لي قدامكم كلّم : باكر قعرّس احسن بيت في البلد » . ثم انفجر بزغردة عظيمة ، كزغاريد النساء في العرس ، وصاح بأعلى صوته : « أدروك يا ناس الغريق ، يا اهل البلد ، الزين مقتول ... قتلته نعمه بنت الحاج ابراهيم » . وصمت بعد ذلك فلم يفه بكلمة . ولم يلبثوا ان سمعوا صوت سيف الدين (انتصار آخر للامام) يؤذن لصلاة العشاء ، فسرت فيهم حركة خفيفة جداً . تنحنح محبوب ، وحرك احمد اسماعيل اصابع قدمه بطريقة لا شعورية ، وتهدد عبد الحفيظ ، ومال الطاهر الرواسي الى الورا قليلاً ، وقال سعيد : « اشهد ألا إله الا الله » وراء

المؤذن بصوت خافت ، ونفخ حمد ود الرئيس في رمل لا وجود له ، من يده . ولما انتهى الاذان وسمعوا صوت الامام ينادي في صحن المسجد : « الصلاة ، الصلاة » قام كل واحد منهم الى بيته ليحضّر عشاءه . وكما يصلي الناس جماعة في المسجد ، سيتعشون هم مجتمعين ، جالسين في دائرة حول صحون الطعام ، يرف عليهم ضوء المصباح الكبير المعلق في متجر سعيد . يأكلون بنهم ، شأن الرجال الذين تعرق جباههم من الجهد سحابة يومهم . يأكلون الدجاج المحمر ، والملوخية بالمرق ، والبامية المصنوعة في الطاجن . في كل ليلة يذبح احدهم اما شاة صغيرة ، واما حملاً . ويفقدو عليهم اطفالهم بزيد من الاكل ، ينزل الصحن مليئاً وما يلبث ان يرتد فارغاً . هذا الوقت من الليل هو قمة يومهم ، مثل هذا تعمل زوجاتهم من طلوع الشمس الى غروبها . يأتيهم المرق في صحون عميقة واللحم المحمر في صحون بيضاوية واسعة . يأكلون الارز وخبزاً سميكاً من القمح ، وفطائر رقيقة تصنع على صاجات ملساء من الحديد . يأكلون السمك واللحم والخضار ، والبصل ، والفجل ، لا يبالون ماذا يأكلون . حينئذ تتوتر عضلاتهم ويصبح حديثهم حاداً مبتوراً ، يتحدثون وأفواههم ملأى . يأكلون في صخب ، تسمع صرير أسنانهم وهي تمضغ الطعام ، واذا شربوا قرقرت حلوقهم بالماء . يتكرعون بأصوات عالية ، ويمصصون بشفاههم . وحين ترتد الأواني فارغة ، يؤتى بالشاي ، يملأون أكوابهم ، ويشعل كل واحد منهم سيجارة ويمدّ رجله ، ويسترخي في جلسته . يكون الناس قد فرغوا من صلاة العشاء . يتحدثون في هدوء وقناعة ، ولعلمهم حينئذ يشعرون ذلك الشعور الدافئ المطمئن الذي يحسه المصلون وهم يقفون صفّاً خلف الامام ، كتفاً بكتف ينظرون الى نقطة بعيدة غامضة تلتقي عندها صلواتهم . في هذا الوقت تخف الحدة في عيني محجوب ، وهما سارحتان في الخط الضئيل الباهت الذي ينتهي عنده ضوء المصباح ، ويبدأ الظلام (اين ينتهي ضوء المصباح ؟ وكيف يبدأ الظلام ؟) . يعمق صمته وقتذاك ، واذا سأله احد اصدقائه فلا يسمع ولا يرد . هذا هو الوقت الذي يقول فيه ود الرئيس ، فجأة ، جملة واحدة ، كأنها حجر يقع في بركة : « الله حي » . ويميل احمد اسماعيل برأسه قليلاً ناحية النهر ، وكأنه يستمع الى صوت يأتيه من هناك . في مثل هذا الوقت ايضاً ، يطةطق عبد الحفيظ اصابعه في صمت ، ويتنهد الطاهر الرواسي ملء صدره ، ويقول : « روح يا زمان وتعال يا زمان » . هل يحسون حينئذ انهم يزدادون قرباً من تلك النقطة ؟ أم تراهم يدركون ان النقطة الغامضة الصامتة في الوسط أمر تنتهي الحياة ولا ينتهي اليه المرء ؟